

تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخبرا عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيرا ونذيرا كما قال D : { أكان للناس عجايبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين } وقال جل وعلا ههنا : { وعجبوا أن جاءهم منذر منهم } أي بشر مثلهم وقال الكافرون { هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إليها واحدا } أي أزعجهم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى وتعجبوا من ترك الشرك بالله فإنهم كانوا قد تلقوا عن آباؤهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم فلما دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا { أجعل الآلهة إليها واحدا إن هذا لشيء عجاب * وانطلق الملائكة منهم } وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين { امشوا } أي استمروا على دينكم { واصبروا على آلهتكم } ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد وقوله تعالى : { إن هذا لشيء يراد } قال ابن جرير إن هذا الذي يدعونا إليه محمد صلى الله عليه وسلم من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه .

(ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمة) .

قال السدي إن ناسا من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش فقال بعضهم لبعض انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكيف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذي يعبده فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء فتعيرنا به العرب يقولون تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه فبعثوا رجلا منهم يقال له المطلب فاستأذن لهم على أبي طالب فقال هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك قال أدخلهم فلما دخلوا عليه قالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك فمره فليكيف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه قال فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك قال صلى الله عليه وسلم : [يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم] قال وإلام تدعوهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم [أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم] فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم ما هي وأبيك لنعطينكها وعشرا أمثالها قال صلى الله عليه وسلم : [تقولون لا إله إلا الله] فنفروا وقالوا سلنا غيرها قال صلى الله عليه وسلم : [لو جئتموني بالشمس حتى

تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها [فقاموا من عنده غضبا وقالوا وا] لنشتمك وإلهك الذي أمرك بهذا { وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد } ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد فلما خرجوا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه إلى قوله لا إله إلا الله فأبى وقال بل على دين الأشياخ ونزلت { إنك لا تهدي من أحببت } .

قال أبو جعفر بن جرير حدثنا أبو كريب وابن وكيع قالا حدثنا أبو أسامة حدثنا الأعمش حدثنا عباد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس Bهما قال : لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول فلو بعثت إليه فنهيته فبعث إليه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل قال فخشي أبو جهل لعنه الله إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه فوثب فجلس في ذلك المجلس ولم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلسا قرب عمه فجلس عند الباب فقال له أبو طالب أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ؟ قال وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : [يا عم إنني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية] ففزعوا لكلمته ولقوله فقال القوم كلمة واحدة نعم وأبيك عشا فقالوا وما هي ؟ وقال أبو طالب وأي كلمة هي يا ابن أخي ؟ قال صلى الله عليه وسلم [لا إله إلا الله] فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون : { أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب } قال ونزلت من هذا الموضع إلى قوله { بل لما يذوقوا عذاب } لفظ أبي كريب وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي من حديث محمد بن عبد الله بن نمير كلاهما عن أبي أسامة عن الأعمش عن عباد غير منسوب به نحوه ورواه الترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير أيضا كلهم في تفاسيرهم من حديث سفيان الثوري عن الأعمش عن يحيى بن عمار الكوفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس Bهما فذكر نحوه وقال الترمذي حسن وقولهم { ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة } أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة .

قال مجاهد وقتادة وأبو زيد يعنون دين قريش وقال غيرهم يعنون النصرانية قاله محمد بن كعب والسدي وقال العوفي عن ابن عباس Bهما ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة يعني النصرانية قالوا لو كان هذا القرآن حقا لأخبرتنا به النصارى { إن هذا إلا اختلاق } قال مجاهد وقتادة كذب وقال ابن عباس تخرص وقولهم { أنزل عليه الذكر من بيننا } يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم كما قال في الآية الأخرى : { لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم } قال الله تعالى : { أنهم يقسمون رحمة ربك } نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات { ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقلهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم .

قال اﻱ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﺑﻞ ﻟﻤﺎ ﻳﺬﻭﻗﻮﺍ ﻋﺬﺍﺏ } ﺃﻱ ﺇﻧﻤﺎ ﻳﻘﻮﻟﻮﻥ ﻫﺬﺍ ﻟﺄﻧﻬﻢ ﻣﺎ ﺫﺍﻗﻮﺍ ﺇﻟﻰ ﺣﻴﻦ ﻗﻮﻟﻬﻢ ﺫﻟﻚ ﻋﺬﺍﺏ اﻱ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﻭﻧﻘﻤﺘﻪ ﺳﻴﻌﻠﻤﻮﻥ ﻏﺐ ﻣﺎ ﻗﺎﻟﻮﺍ ﻭﻣﺎ ﻛﺬﺑﻮﺍ ﺑﻪ ﻳﻮﻡ ﻳﺪﻋﻮﻥ ﺇﻟﻰ ﻧﺎﺭ ﺟﻬﻨﻢ ﺩﻋﺎ ﺗﻢ ﻗﺎﻝ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﻣﺒﻴﻨﺎ ﺃﻧﻪ ﺍﻟﻤﺘﺼﺮﻑ ﻓﻲ ﻣﻠﻜﻪ ﺍﻟﻔﻌﺎﻝ ﻟﻤﺎ ﻳﺸﺎﺀ ﺍﻟﺬﻱ ﻳﻌﻄﻲ ﻣﻦ ﻳﺸﺎﺀ ﻣﺎ ﻳﺸﺎﺀ ﻭﻳﻌﺰﺯ ﻣﻦ ﻳﺸﺎﺀ ﻭﻳﺬﻝ ﻣﻦ ﻳﺸﺎﺀ ﻭﻳﻬﺪﻱ ﻣﻦ ﻳﺸﺎﺀ ﻭﻳﻀﻞ ﻣﻦ ﻳﺸﺎﺀ ﻭﻳﻨﺰﻝ ﺍﻟﺮﻭﺡ ﻣﻦ ﺃﻣﺮﻩ ﻋﻠﻰ ﻣﻦ ﻳﺸﺎﺀ ﻣﻦ ﻋﺒﺎﺩﻩ ﻭﻳﺨﺘﻢ ﻋﻠﻰ ﻗﻠﺐ ﻣﻦ ﻳﺸﺎﺀ ﻓﻼ ﻳﻬﺪﻱﻩ ﺃﺣﺪ ﻣﻦ ﺑﻌﺪ اﻱ ﻭﺇﻥ ﺍﻟﻌﺒﺎﺩ ﻻ ﻳﻤﻠﻜﻮﻥ ﺷﻴﺌﺎ ﻣﻦ ﺍﻟﺄﻣﺮ ﻭﻟﻴﺲ ﺇﻟﻴﻬﻢ ﻣﻦ ﺍﻟﺘﺼﺮﻑ ﻓﻲ ﺍﻟﻤﻠﻚ ﻭﻻ ﻣﺘﺜﺎﻝ ﺫﺭﺓ ﻭﻣﺎ ﻳﻤﻠﻜﻮﻥ ﻣﻦ ﻗﻄﻤﻴﺮ .

ﻭﻟﻬﺬﺍ ﻗﺎﻝ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﻣﻨﻜﺮﺍ ﻋﻠﻴﻬﻢ { ﺃﻡ ﻋﻨﺪﻫﻢ ﺧﺰﺍﺋﻦ ﺭﺣﻤﺔ ﺭﺑﻚ ﺍﻟﻌﺰﻳﺰ ﺍﻟﻮﻫﺎﺏ } ﺃﻱ ﺍﻟﻌﺰﻳﺰ ﺍﻟﺬﻱ ﻻ ﻳﺮﺍﻡ ﺟﻨﺎﺑﻪ ﺍﻟﻮﻫﺎﺏ ﺍﻟﺬﻱ ﻳﻌﻄﻲ ﻣﺎ ﻳﺮﻳﺪ ﻟﻤﻦ ﻳﺮﻳﺪ ﻭﻫﺬﻩ ﺍﻻﻳﺔ ﺍﻟﻜﺮﻳﻤﺔ ﺷﺒﻴﻬﺔ ﺑﻘﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﺃﻡ ﻟﻬﻢ ﻧﺼﻴﺐ ﻣﻦ ﺍﻟﻤﻠﻚ ﻓﺈﺫﺍ ﻻ ﻳﯘﺗﻮﻥ ﺍﻟﻨﺎﺱ ﻧﻘﻴﺮﺍ * ﺃﻡ ﻳﺤﺴﺪﻭﻥ ﺍﻟﻨﺎﺱ ﻋﻠﻰ ﻣﺎ ﺃﺗﺎﻫﻢ اﻱ ﻣﻦ ﻓﻀﻠﻪ ﻓﻘﺪ ﺃﺗﻴﻨﺎ ﺃﻝ ﺇﺑﺮﺍﻫﻴﻢ ﺍﻟﻜﺘﺎﺏ ﻭﺍﻟﺤﻜﻤﺔ ﻭﺃﺗﻴﻨﺎﻫﻢ ﻣﻠﻜﺎ ﻋﻄﻴﻤﺎ * ﻓﻤﻨﻬﻢ ﻣﻦ ﺃﻣﻦ ﺑﻪ ﻭﻣﻨﻬﻢ ﻣﻦ ﺻﺪ ﻋﻨﻪ ﻭﻛﻔﻲ ﺑﺠﻬﻨﻢ ﺳﻌﻴﺮﺍ } ﻭﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﻗﻞ ﻟﻮ ﺃﻧﺘﻢ ﺗﻤﻠﻜﻮﻥ ﺧﺰﺍﺋﻦ ﺭﺣﻤﺔ ﺭﺑﻲ ﺇﺫﺍ ﻟﺄﻣﺴﻜﺘﻢ ﺧﺸﻴﺔ ﺍﻟﺌﻨﻔﺎﻕ ﻭﻛﺎﻥ ﺍﻟﺌﻨﺴﺎﻥ ﻗﺘﻮﺭﺍ } ﻭﺫﻟﻚ ﺑﻌﺪ ﺍﻟﺤﻜﺎﻳﺔ ﻋﻦ ﺍﻟﻜﻔﺎﺭ ﺃﻧﻬﻢ ﺃﻧﻜﺮﻭﺍ ﺑﻌﺜﺔ ﺍﻟﺮﺳﻮﻝ ﺍﻟﺒﺸﺮﻱ ﺻﻠﻰ ﺍﻱ ﻋﻠﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﻭﻛﻤﺎ ﺃﺧﺒﺮ ﺩ ﻋﻦ ﻗﻮﻡ ﺻﺎﻟﺢ ﻋﻠﻴﻪ ﺍﻟﺴﻼﻡ ﺣﻴﻦ ﻗﺎﻟﻮﺍ { ﺃﻟﻘﻲ ﺍﻟﺬﻛﺮ ﻋﻠﻴﻪ ﻣﻦ ﺑﻴﻨﻨﺎ ﺑﻞ ﻫﻮ ﻛﺬﺍﺏ ﺃﺷﺮ * ﺳﻴﻌﻠﻤﻮﻥ ﻏﺪﺍ ﻣﻦ ﺍﻟﻜﺬﺍﺏ ﺍﻟﺄﺷﺮ } . ﻭﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﺃﻡ ﻟﻬﻢ ﻣﻠﻚ ﺍﻟﺴﻤﻮﺍﺕ ﻭﺍﻟﺄﺭﻃ ﻭﻣﺎ ﺑﻴﻨﻬﻤﺎ ﻓﻠﻴﺮﺗﻘﻮﺍ ﻓﻲ ﺍﻟﺄﺳﺒﺎﺏ } ﺃﻱ ﺇﻥ ﻛﺎﻥ ﻟﻬﻢ ﺫﻟﻚ ﻓﻠﻴﺼﻌﺪﻭﺍ ﻓﻲ ﺍﻟﺄﺳﺒﺎﺏ ﻗﺎﻝ ﺍﺑﻦ ﻋﺒﺎﺱ ﺑﻬﻤﺎ ﺑﻮﺍﺑﻨﺎ ﻭﺳﻌﻴﺪ ﺑﻦ ﺟﺒﻴﺮ ﻭﻗﺘﺎﺩﺓ ﻭﻏﻴﺮﻫﻢ ﻳﻌﻨﻲ ﺗﺮﻕ ﺍﻟﺴﻤﺎﺀ ﻭﻗﺎﻝ ﺍﻟﺰﻫﺎﻙ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﻓﻠﻴﺼﻌﺪﻭﺍ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﺴﻤﺎﺀ ﺍﻟﺴﺎﺑﻌﺔ . ﺗﻢ ﻗﺎﻝ ﺩ : { ﺟﻨﺪ ﻣﺎ ﻫﻨﺎﻟﻚ ﻣﻬﺰﻭﻡ ﻣﻦ ﺍﻟﺄﺣﺰﺍﺏ } ﺃﻱ ﻫﯘﻻﺀ ﺍﻟﺠﻨﺪ ﺍﻟﻤﻜﺬﺑﻮﻥ ﺍﻟﺬﻳﻦ ﻫﻢ ﻓﻲ ﻋﺰﺓ ﻭﺷﻘﺎﻕ ﺳﻴﻬﺰﻣﻮﻥ ﻭﻳﻐﻠﺒﻮﻥ ﻭﻳﻜﺒﺘﻮﻥ ﻛﻤﺎ ﻛﺒﺖ ﺍﻟﺬﻳﻦ ﻣﻦ ﻗﺒﻠﻬﻢ ﻣﻦ ﺍﻟﺄﺣﺰﺍﺏ ﺍﻟﻤﻜﺬﺑﻴﻦ ﻭﻫﺬﻩ ﺍﻻﻳﺔ ﻛﻘﻮﻟﻪ ﺟﻠﺖ ﻋﻈﻤﺘﻪ : { ﺃﻡ ﻳﻘﻮﻟﻮﻥ ﻧﺤﻦ ﺟﻤﻴﻊ ﻣﻨﺘﺼﺮ * ﺳﻴﻬﺰﻡ ﺍﻟﺠﻤﻊ ﻭﻳﻮﻟﻮﻥ ﺍﻟﺪﺑﺮ } ﻛﺎﻥ ﺫﻟﻚ ﻳﻮﻡ ﺑﺪﺭ { ﺑﻞ ﺍﻟﺴﺎﻋﺔ ﻣﻮﻋﺪﻫﻢ ﻭﺍﻟﺴﺎﻋﺔ ﺃﺩﻫﻰ ﻭﺃﻣﺮ }